

العنوان:	أريك فروم و علم النفس الاجتماعي التحليلي
المصدر:	الفكر العربي
الناشر:	معهد الإنماء العربي
المؤلف الرئيسي:	مكي، عباس
المجلد/العدد:	مج 2، ع 15
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1980
الشهر:	يونيو
الصفحات:	210 - 206
رقم MD:	418823
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المادية الجدلية، علم النفس الاجتماعي، فرم ، أريك، علماء النفس، العلماء الالمان، التحليل النفسي، المادية التاريخية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/418823

أريك فروم

وعالم النفس الاجتماعي التحليلي

د. عبّاس مكي

حتى الآن نعيش في أجواء محاولات الجمع بين الماركسية والتحليل النفسي بعد أن بدأها رايش وفروم وماركوز.

ان القضية الأساسية التي شغلت فروم ووضعت في مواجهة فكرية حادة مع رايش، بصورة خاصة،^(٢) تتمحور حول إمكانية استعمال مفاهيم ومنهجية التحليل النفسي في تحليل الظاهرة الاجتماعية والصلاحية العلمية لهذا الاستعمال.

وأريك فروم، المحلل النفسي والفيلسوف، ولد وعاش في ألمانيا (التي ترعرع فيها الفكران الماركسي والفرويدي) حتى سنة ١٩٣٤، وانتقل بعدها الى الولايات المتحدة الأميركية (التي يغلب على أجوائها العلمية المنحى الأنكلو سكسوني التجريبي) ثم عاد وعاش في إيطاليا حتى سنواته الأخيرة.

وحياته العلمية هذه تظهر من خلال أبحاثه:

فقد كتب حول «الخوف من الحرية» و «التحليل

بعد غياب أريك فروم نرى من المفيد ان نعرض باختصار العناصر الأساسية لفكره والتوجهات العامة لأبحاثه؛ وذلك بهدف وضع ترائه في إطار الحركة الفكرية العامة التي ساهم في تحديد معالمها.

إن أريك فروم هو واحد من ركائز الثالوث التحليلي الماركسي الذي خلق حركة بحث علمية وفكرية عامة عملت على إبراز التفاعل والتقاطع بين الفكر والمنهجية الماركسية والفكر والمنهجية التحليلية العيادية. وقد انطلقت هذه الحركة العلمية، بعد عشر سنوات تقريباً من نهاية الحرب العالمية الثانية، من أجواء النقاش الحاد بين ماركوز (Herbert Marcuse)

وأريك فروم (Erich Fromm) حول التحليل النفسي الثقافي، وقد تركز النقاش في الأساس حول ما يمكن قبوله من الفكرين الماركسي والفرويدي وما يمكن تعديله منها^(١). وكان هذا الحوار قد بدأ مع أبحاث رايش وبخاصة في الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٦. وما زلنا

وتواجه النزوات هذه بالواقع الاجتماعي الذي يراقب حركتها ويقتنها تبعاً لبيئته.

وبنية النزوة عند الفرد خاضعة لعاملين: البنية الجسمية (La Constitution) التي يتلخصها الفرد منذ الولادة؛ والقدر الوجودي (Le Destin de son Existence) الذي يتتبع مع بدايات الطفولة الأولى. وعلى صعيد إشباع النزوة الجنسية، فإنها يمكن ان تنتظر أكثر بكثير من النزوة الغذائية، ونزوة الجنس تخضع للكبت والتسامي، ويمكنها ان تشبع هوائياً (على خلاف نزوة الغذاء والاستمرار التي لا يمكن ان تشبع الا فعلياً). والنزوة الجنسية يمكن ان تظهر - هوائياً - على شكل مازوشي أو سادي مثلاً.

ثانياً: حول المادية الجدلية والمادية التاريخية:

يرى فروم بأن المجتمع هو عبارة عن أفراد أحياء يخضعون لقوانين التحليل النفسي المشار إليها؛ ويشير في هذا المجال الى خلافه مع رايش:

فمن الخطأ برأيه (كما ذكر رايش) حصر التحليل النفسي في إطار علم النفس الفردي فقط والقول بأن التحليل النفسي لا ينطبق على الظواهر الاجتماعية (السياسة والوعي السياسي..).

فعلم النفس الاجتماعي التحليلي هو علم فهم البنية النزوية للجماعة ما «بمواقفها الليبيدية اللاواعية» انطلاقاً من بنيتها الاقتصادية الاجتماعية. ويتم ذلك من خلال دراسة دائرة الأسرة التي يخضع الطفل في إطارها، وبشكل غير مباشر، لضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية لوالديه، عن طريق القيم التربوية للطبقة الاجتماعية التي تنتمي اليها الأسرة.

وهكذا فإن العلاقات بين الأب والأبناء في الأسرة البروليتارية تختلف عنها في إطار أسر الطبقات الأخرى.

ان الأسرة، برأى فروم، هي الجهاز السيكولوجي للطبقة الاجتماعية التي تنتمي اليها. (ولذلك فإنه يشير

النفسي والدين» و «فن الحب» و «المجتمع المرتن» و «الأمل والثورة» و «أزمة التحليل النفسي» و «البوذية والتحليل النفسي»... و «نزعة التدمير عند الانسان».

وفي مجمل أبحاثه يظهر أريك فروم امتلاكه الموسوعي لموضوعات وميادين الفيزيولوجيا العصبية، والتاريخ والاثربولوجيا وعلم نفس الحيوان والتحليل النفسي.

لقد بدأ التفاعل والتقاطع بين الماركسية والتحليل النفسي في ذهن أريك فروم في بدايات الثلاثينات حيث كتب مقالاً بالغ الأهمية والدلالة في هذا المجال بعنوان «مهمة وطريقة علم النفس الاجتماعي التحليلي»^(٢).

في هذا المقال يطرح فروم مجموعة من التساؤلات حول إمكانية قيام علم النفس الاجتماعي التحليلي وحول مهامه ومنهجيته. وأبحاثه اللاحقة طورت كثيراً في محاولاته التي بدأت في المقال المشار اليه وبقيت في الاطار الأول الذي حدده.

إن العناصر الأساسية لفكر أريك فروم يمكن ان تستنبط من طريقته في رؤية التقاطع والتفاعل بين الماركسية والتحليل النفسي وما يمكن ان ينتج عن ذلك من مناهج وطرق أبحاث في مجالات علم النفس.

كيفية طرح فروم شخصياً هذه المشكلة؟

أولاً: يشير فروم الى كون التحليل النفسي علماً مادياً؛ والحقائق المادية التي توصل اليها هذا العلم تلخص في الآتي:

النزوات والحاجات هي التي تحرك السلوك الانساني، وهي تصدر عن أرضية فيزيولوجية ولكن لا تلاحظ مباشرة؛ والأخلاقيات الاجتماعية تموّه النزوة ورغباتها عن طريق العقلنة الايديولوجية، والحاجات لا تقتصر فقط على الغذاء والحفاظة على الوجود والاستمرار (الجوع والعطش..). وإنما تطال النزوة الجنسية التي تبرز من خلال التوترات الجسدية في المناطق العنقية للجسد (تلك المناطق التي تحرك اللذة).

هنا الى النسبية الاجتماعية لمركب الأوديب).

والغزو، وإنما هو التعبير عن حاجات نرجسية: أي ان يُعترف بالفرد لذاته ومن خلال الآخرين.

ثالثاً: كيف تبرز علاقة التحليل النفسي بالمادية التاريخية:

يرى أريك فروم بأن التحليل النفسي يمكن ان يغني المادية التاريخية بمعرفة أوسع بالتكوين الانساني، وبواحد من أهم عناصره (تكوين الجهاز النزوي) الذي يتدخل بعمق في العملية الاجتماعية. ويرى بأن الجذور الليبيدية للجهاز النفسي تشكل جزءاً أساسياً من البنية التحتية.

ويشير فروم بالتحديد الى أن التحليل النفسي يمكن ان يفسر ما لم يفسره ماركس وأنجز عن كيفية الانتقال من الأشياء المادية الى الفكر الانساني عبر «رأس الانسان».

وعلى هذا يرى بأن علم النفس الاجتماعي، استناداً الى التحليل النفسي، يستطيع ان يفسر إنتاج الايديولوجيات عن طريق تفسير كيفية تحرك وانتقال الواقع الاقتصادي استناداً الى حياة الانسان النزوية.

والتحليل النفسي يستطيع ان يشرح عملية التناك الاجتماعي: فالتناك لا يتم فقط من خلال أجهزة القمع (البوليس، العدالة، الجيش)، وإنما يتم أيضاً عن طريق القوى الليبيدية التي تشكل اللحمة التي تجمع الناس وتدفعهم الى إنتاج الايديولوجيات.

ويستطيع التحليل النفسي أيضاً ان يفسر عملية خضوع الأثرية للأقلية، فيرى في ذلك عملية تثبت وإعادة (Fixation et Repretition) واستمرارية أيضاً للموقف الذهني الذي كان البالغ يتخذه (عندما كان طفلاً) حيال أهله (ولا سيما حيال الأب في إطار الأسرة البرجوازية). ان في ذلك مزيجاً من الإعجاب والتخوف والايان بالقوة والذكاء والأهداف الأبوية مما يظهر على شكل تقدير كبير ومضخم للصفات الفكرية والأخلاقية التي يمتلكها الأب.

ولو طبقنا طريقة علم النفس الفردي التحليلي على الظواهر الاجتماعية، لتوصلنا الى الطريقة، النفس اجتماعية، التي تعمل على «تفهم عمليات التكيف الاجتماعية والسلبية للجهاز النزوي مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي». ذلك ان الجهاز النزوي هو نفسه معطى بيولوجي يتأثر ويتشكل تبعاً للواقع الاقتصادي الاجتماعي السائد (عبر حلقة الأسرة).

ويشير فروم الى بعض التأويلات الخاطئة للنظرية الماركسية، فيرى خطأ راسل (Bertrand Russel) الذي يعتقد بأن ماركس قال بوجود دافع «كسب المال» كمحرك أساسي للسلوك الانساني⁽⁴⁾.

ويشير كذلك الى خطأ هنري دومان (Henri de Man) الذي يقول بأن ماركس يمتد بوجود غريزة الربح (l'Instinct de Profit) عند الانسان⁽⁵⁾.

ويرى فروم رداً على ذلك كله، مع ماركس، بأن الانسان هو الذي يصنع التاريخ، وبأن الحاجات هي التي تحرك الأعمال والمثاعر الانسانية، وبأن هذه الحاجات تتضاعف وتتغير من خلال تطور المجتمع، وبأن هذا التغير يمثل شروط مضاعفة العمل الاقتصادي.

ويرى كذلك، بحسب مفهومه للمادية الجدلية، ان العامل الاقتصادي لا يلعب دوراً في علم النفس الا حيث تجد الحاجات الانسانية إشباعها بواسطة انتاج الأشياء والوسائل المادية لهذا الاشباع (وهذا ينطبق خصوصاً على حاجة الغذاء والاستمرار). وهكذا، فإن هذه الحاجات تعمل كرافعة لعملية الانتاج. وأما حاجة النزوة الجنسية فإن لها مساراً آخر يدرسه التحليل النفسي.

ان التحليل النفسي، كما يرى فروم، هو الذي أعطى علم النفس إمكانية الحديث عن «غريزة الربح»، بحيث أنها تلعب في الاقتصاد النفسي دوراً أساسياً مع غيرها من الحاجات مثل التناسل والسادية والنرجسية؛ وان الربح ليس له أساس الامتلاك

ان فروم يرى توازياً بين التثبيت على الأب والتثبيت على الطبقة المسيطرة. والعلاقات الليبيدية تختلف باختلاف الطبقات. فالعلاقات الليبيدية مع القائد السياسي تختلف عنها مع القائد البروليتاري الذي يتأهي بطبقة ويخدم رغباتها، مع أنه يقودها الى القائد الدكتاتور الذي يقود الجماهير فقط لأنه رجل قوي ومن طبقة مهيمنة.

رابعاً: مهمة وطريقة علم النفس الاجتماعي التحليلي:

يمكن ان نتلخص مع فروم كما يلي:

• إن طريقة التحليل النفسي الفرويدي هي التي يجب ان تُعتمد في علم النفس الاجتماعي التحليلي، وذلك عبر تطبيقها على الظواهر الاجتماعية، مما يؤدي الى فهم المواقف النفسانية المشتركة بين الأفراد ودلالاتها الاجتماعية.

ويعتبر ذلك انطلاقة من عمليات التكيف السلبية والاجيائية للجهاز الزوي مع الشروط الوجودية الاجتماعية والاقتصادية.

• ومهمة علم النفس الاجتماعي التحليلي هي إظهار التوجهات الليبيدية الأساسية اجتماعياً، وعرض وشرح البنية الليبيدية للمجتمع، وذلك عبر تفسير هذه البنية وتطور وظيفتها في العملية الاجتماعية، مما يبرز الدور الأساسي لنظرية نشوء الايديولوجيات تبعاً لتقاطع (Interaction) الجهاز الزوي مع الشروط والظروف الاقتصادية الاجتماعية.

* * *

لقد ساعدت مواقف فروم الى حد بعيد على تحديد موضوع ومنهجية علم النفس الاجتماعي العيادي. وهذا ما ظهر من خلال أبحاثه ودراساته من جهة، ثم من خلال أبحاث ودراسات مجادليه من جهة ثانية (ولا سيما رايش الذي دخل معه في نقاش شهير أشرنا اليه في هذا المقال). على أننا نستطيع ان نوجه الى فروم مجموعة من الانتقادات عنوانها انه لم يحدد بوضوح المستوى الذي يدرسه علم النفس الاجتماعي (لأن الظاهرة الاجتماعية لا تُدرس الا اجتماعياً والظاهرة النفسانية لا تُدرس الا نفسانياً، بينما نرى فروم يقول بأن التحليل النفسي يمكن ان يدرس الظاهرة الاجتماعية) ونحن نوافق في ذلك رايش في مواقفه النقدية من أريك فروم؛ ونقرّ في الوقت نفسه بأن فروم استطاع بمجادة أن يبرز القدرة الفائقة للجهاز الزوي على التكيف مع القدر الوجودي للانسان في الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه.

ونظرة نافذة الى الأحداث اللبانية خاصة، والعربية عامة (وكذلك الى أقطار العالم الثالث) تفيد بما لا يقبل التردد بأن ما يجري يصدر عن عمق نزواتنا المكبوتة التي تقنص المناسبة للتعبير الانفجاري واللاعقلاني عن أهدافها ويتم كل ذلك في جو اجتماعي مفكك ولاعقلاني - وأكاد أقول «بدائي» - فرضته علينا «حضارة عقلانية» ترمّست بشق أنواع القمع والاستغلال «للشعوب غير المتحضرة»! حيث تم تحويلنا، عن طريق الفوضى التي نعيشها، الى مجتمع خاضع ولا واع ينفذ مجبوانية نزوية ما صممه له الوعي الاستعماري «المتحضر».

هوامش

- (1) Louis FRAENKEL, Le Freudo-Marxisme in, Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation- 10/18. Paris- 1974.
- (2) Reich- L'application de la psychanalyse a la recherche historique. in, Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation. 10/18. Paris 1974 P. P 15-39.

- (3) Erich Fromm- Tache et methode d'une psychologie sociale analytique» in Freudo-Marxisme et sociologie de l'aliénation- 10/18- Paris 1974. P. P 41-81
- (4) Bertrand Russel; Warum ist die psycho-analyse popular? article publié en 1927 dans la revue Juive Forward, cité par Kantsky, Der historische Materialismus t. I, P. 340/1.
- (5) Zur psychologie de Sozialismus, 1927 P. 281.